بورتريه

الشاعر الذي لم تنصفه جائزة الدولة في مصر

فتح الباب: استقيت ماء قصيدتي من ورد العذابات التي كابدتها في طفولتي

كتب مدحت علام:

حينما يكون الشعر هو المحك الاساسي الذي يتحدى به الشاعر همومه، واحزانه، والعنصر الاكثر اهمية في خضم التفاعل مع الواقع والخيال، في هذه الحالة تكون القصيدة بكل تجلياتها وعنفوانها الادبي والفني هي الاقرب الى وجدان المتلقي، من تلك القصائد العابرة التي لا تتضمن بين متونها غير عبارات براقة خالية من المضمون.

والشاعر الكبير الدكتور حسن فتح الباب الذي امتطى صهوة القصيدة منذ زمن بعيد، لم يغب عن باله هاجس الشعر في اي لحظة من اللحظات، كي تكون حصيلته الشعرية اكثر من ١٥ ديوانا شعريا، وعدد من الدراسات النقدية ومسرحيتين.

وفتح الباب الذي ابتلى باليتم في طفولته المبكرة، لم تدفعه هذه الحالة الى الانطواء على نفسه، والانصياع كليا او جزئيا الى عالم الوحدة والعزلة، ولكنه استدرك في وقت مبكر قيمة الوجود، واختار لنفسه طريق الامل والتفكير المستقل في الحياة، كي تتفتح مداركه الى معنى الحياة، وقيمتها، وكان الشعر هو سبيله الشديد لتحقيق هذه الاشكالية الزمنية، ولنقرأ ما قاله فتح الباب عن هذه المرحلة العصية من حياته، وهي مرحلة الاحساس باليتم: «من ورد العذابات والاحلام والاشواق، التي كابدتها في عهد الطفولة، استقيت ماء الشعر، فغنيتها صغيرا، ومازلت اكتوي بلهيبها كبيرا، فلا غرو ان تتفجر الينابيع التي ظننتها كامنة خامدة، كلما انتكا الجرح في جسد الوطن - افرادا او شعبا - او جسد الامة او جسد الانسانية، فعانته من ادق ذرة في التراب، الى ابعد نجمة في السماء، وأول ما تفجر هي جراحات الطفل اليتيم القديم».

وتتواصل الذكريات الاليمة، في شعر فتح الباب كي يبوح:

«كان رفاق «حارتي» لا يعرفون الورد
أودعت صدري حزمة من نار
نصبت فيه راية حمراء
ما شفيت مرة غليله
وكلما تألقت جوهرة من الندى
تحت الشروق
وجمت... اعشى عيني البريق
لأنني شاهدت في مرآتها
عيون قطاع الطريق»

ورغم أحاسيس فتح الباب بالاغتراب واليتم، الذي لازمه ومازال يلازمه، مع انه اصبح جدا، الا ان وجهه مازال بشوشا بطيبته المتناهية التي تدخل في نفسك البهجة وأنت امام هذا الشيخ، وهو يتحدث معك، وكأنك تعرفه منذ زمن بعيد وأنت ربما لم تقابله الا في هذه اللحظة الخاطفة، ولكن دفء مشاعره، وبساطة اسلوبه في الحديث، يجعلان من روحك قريبة جدا من روحه، ومع كل مسحة حزن تشاهدها على محيا هذا الشاعر الجميل لا يسعك الا ان تكرر ما تحفظه من شعره الشفاف:

«ولدت تحت عالم لم يكتشف
ولم يكن له سفين
فلم أجد طفولتي»

وفتح الباب الذي امتهن عملا، كان من المفترض ان يبعده عن تعاطي الشعر الذي شغف به، حينما اصبح ضابط شرطة بكل ما تحمله هذه الوظيفة من بعد عن رهافة الحس، وتدفق المشاعر، الا ان رغبته العارمة في التعبير عن مشاعره التي لم ترهقها رتابة الوظيفة، ولم تذبل امام مسؤوليات حفظ الامن، في المكان الذي يحل عليه ضابطا للشرطة، ولكن العكس كان يحدث دائما فقد استمد تجاربه الشعرية من الماسي التي كانت تقابله اثناء عمله الوظيفي كما في شخصية «متولي» المراكبي البسيط صاحب

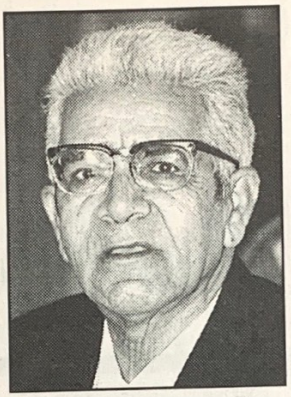

حسن فتح الباب

الاولاد العديدين، وغيرها، وعلى هذا الاساس فإن فتح الباب يبوح: «كانت سفينة الشاعر الضابط منذورة لخوض امواج عالية كالجبال، ورياح عاتية، لا قبل لي بمقاومتها باشرعة سفينتي الشاعرية، وأجنحتها الرقيقة، فكانت مركبا للعذاب، وان جاءت في الوقت نفسه مشحونة بالابداع، لقد أسندت اليّ وزارة الداخلية رئاسة نقطة شرطة في الاقاليم، فوجدتني غريبا في زي غريب، بسبب تلك العقدة التاريخية المتأصلة في اعماق الريفيين، وهي كراهية الشرطة باعتبارها ممثلة للسلطة التي طالما اغتصبت اراضيهم التي رووها بالدمع والدم (...) لقد طاردني الفلاحون الفقراء بنظرات صامتة، ولكنها اشبه باللعنات، رغم محاولاتي الدائبة في اقناعهم انني ما جئتهم الا من اجل الحفاظ على أمنهم ودرء الجرائم عنهم».

ومن ثم فقد تفجرت ينابيع القصيدة لدى الشاعر:

«شربت احزان القرى لم تتبعني
لم أكن بتابع أمين
كان ردائي صفرة نزفتها
من عرق السنابل»

ولقد شهد الشاعر الكثير من الاحداث التي غيرت مسار المجتمع العربي لذا فإن كلمته لم تقف عند حد المشاهدة، لكنها تفاعلت وانفعلت بكل هذه الاحداث، فكتب، بدأ بمرتبة استشهاد البطل عبدالقادر الحسيني في معركة القسطل على الارض المقدسة في ٨ ابريل ١٩٤٨ تلك المرتبة التي ضمنها في ديوانه الاول ثم قصائده التي كتبها لابطال الجزائر وفلسطين ولبنان وكل بقعة عربية شهدت تحولا في مسار اثبات وجودها والبحث عن بداية حقيقية لذاتها. كما تأثر الشاعر بهجرته التي اقدم عليها في العام ١٩٧٧ الى الجزائر، للتدريس في احدى جامعاتها. وكانت علامة فارقة في شعره، وكان ديوان «وردة كنت في النيل خباتها» في العام ١٩٨٥ الثمرة الاولى لهذه التجربة، ثم اعقبه ديوان «مواويل النيل المهاجر»، الذي ينشر في العام ١٩٨٧ قبيل عودته الى الوطن، وبعد استقراره في مصر صدرت له دواوين «احداق الجياد» في العام ١٩٩٠ ثم «كل غيم شجر... كل جرح هلال» في العام ١٩٩٣، وخاض فتح الباب تجربة المسرح الشعري من خلال مسرحيتين كتبهما في مطلع الشباب هما «أوزوريس» و«اخناتون».

هكذا استطاع الشاعر الكبير الدكتور حسن فتح الباب في رحلته مع الشعر والقصيدة والتي تزيد على الثلاثين عاما، ان يؤكد خصوصية شعرية ثرية، أسهمت بشكل واضح وصريح في تغيير مسار القصيدة العربية، بصفته أحد رواد الشعر الحر في الوطن العربي. فمثلما استطاعت قصيدته الكلاسيكية التعبير بصدق عن مشاعره، وشق طريقها في خضم الساحة الشعرية، فإن قصيدته الحرة، بصدقها ومتانة لغتها، استطاعت التأكيد على شاعريته التي يستحقها وبجدارة، فهو يكتبها بعشق، وباحساس متدفق بالحيوية والتألق:

«غيم ولا ظل... قمر
يلهو بسلة المحار
ينبلج الستار
عن شاطئ من زبد».

وحينما لا يحصل مثل هذا الشاعر الكبير على احدى جوائز الدولة في مصر، فإن هذا معناه انقلاب في الموازين، وسريان المحسوبية والاجتماعيات والتملق، تلك الامور التي ابتعد عنها شاعرنا منذ ان خط قلمه اول قصيدة، يتغنى فيها بالجمال والشفافية، فشاعرنا الذي تخطى الستين من عمره، مازال مصرا على مبدئه في ان يكون بعيدا عن الاضواء والمحسوبية. قريبا من قلوب محبي شعره.

«آه لو تحملنا ريح رخاء
تطفيء الجمر الذي يوري السهاد
وتعيد الارض أما
يظمأ الراعي فتدنو الساقية
والسماوات بساتين غناء»

وكانت جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للابداع الشعري، منتبهة لقيمة هذا الشاعر العربي، كي تمنحه جائزتها عن ديوانه «أحداق الجياد» في السنوات الماضية، ولقد شهدت الدورة الماضية طرح اسم فتح الباب لنيل احدى جوائز الدولة في مصر، الا ان اعضاء اللجنة التي تختار الفائزين لم ينتبهوا، لمثل هذه القامة الشعرية، وما حققته في تاريخها الشعري الطويل والثري من طفرة في مدلولات القصيدة العربية التي أضافت اليها الكثير من روحه، ومشاعره، ولم يبخل عليها من وقته وجهده:

«يا للسكون المشتهي
نجمان منذوران للغيب
خلف مرايا القمر المجتلي
مستعليا لم ترقه أقدام
نشوان لازمان ولا مكان».

إن فتح الباب «الذي ذابت مشاعره مع مشاعر الاخرين، ولم يعد لروحه متسعا لغير ما تقره احاسيسه من حب واغفال لذاته في سبيل اظهار الحلم الجماعي»، لا يستحق منا غير ان نبادله الحب، وان نقدره خير تقدير.